الغيب

وصف الله تعالى فى أولى آيات سورة البقرة المتقين فقال إنهم (الذين يؤمنون بالغيب) . فماذا يكون هذا الغيب ؟

قال القرطبي فى شرح الآية : « الغيب فى كلام العرب ، كل ما غاب عنك » .

ثم قال : « واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية ، الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى ، وقال آخرون القضاء والقدر ، وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب ، وقال آخرون . الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر والحشر والنشر ، والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية ، وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها » .

ثم قال القرطبى : « وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : (الذين يؤمنون بالغيب) ثم قال القرطبى : وفى التنزيل : (وما كنا غائبين) وقال « الذين يخشون ربهم بالغيب » فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ،

فهم يؤمنون بأن لهم رباً قادراً يجازى على الأعمال . فهم يخشونه فى سرائرهم وخلوهم التى يغيبون فيها عن الناس . لعلمهم باطلاعه عليهم وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض . والحمد لله » .

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية : « عن ابن عباس (بالغيب) قال بما جاء منه . يعنى من الله جل ثناؤه وعن ابن مسعود . وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار . وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن . لم يكن تصديقهم بذلك . يعنى المؤمنين من العرب — من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم » .

وعن زر قال : الغيب القرآن ، وعن قتادة : « آمنا بالجنة والنار ، والبعث بعد الموت ، وبيوم القيامة . وكل هذا غيب » . وعن الربيع ابن أنس : « (الذين يؤمنون بالغيب) : آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر . وجنته وناره ولقائه ، وآمنوا بالحياة بعد الموت ، فهذا كله غيب وأصل الغيب : كل ما غاب عنك من شىء وهو من قولك : غاب فلان يغيب غيباً » .

وجاء فى تفسير المنار أن الإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس ، وجاء فى التفسير أن الشيخ محمد عبده قال : وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول المنهج ، لا يحتاج إلا لمن يدله على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتى عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله ، سهل عليه التصديق ، وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر ، أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها — كعلم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء

به الخبر . بعد ثبوت النبوة ، لذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الوصف ، فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم » .

ثم قال :

« ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان . وليس له أثر فى الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل : ولم يلاحظه وجدان القلب : بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيمانا لايفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن » .

ولقد ورد لفظ (الغيب) كمصطلح قرآنى ، بالمعنى الذى سلف به القول ، مرة واحدة ، أى فى الآية الأولى من سورة البقرة ، ولكنه ورد بمعنى « المجهول » بصيغة المفرد وصيغة الجمع ، فى نحو بضعة وأربعين موضعاً ، من ذلك ما وصف به الله تعالى ذاته من أنه عالم الغيب والشهادة (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)[١] ، (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم)[٢] ، (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[٣] وجاء هذا الوصف بصيغ الجمع فى سورة المائدة : (قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) ، وفى سورة التوبة : (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) ، وفى سورة سبأ (قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) .

وعن الماضى المجهول وردت فى أكثر من موضع عبارة « أنباء الغيب» فى سورة آل عمران: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) ، وفى سورة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) وفى سورة هود : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) .

أما المجهول المضمر عند الله فقد ورد عنه فى سورة الأنعام :

---

(١) سورة المؤمنون .
(٢) سورة السجدة .
(٣) سورة الرعد .

(لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) : وفى الأعراف : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) وفى سبأ : (لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

ويستعمل القرآن لفظ الغيب . بمعنى ما يجرى فى غيبة إنسان ما . أو ما يجرى ولا يرى بالعين . وإنما يعرف وجوده بالعقل . ويحس بالوجدان . فبالمعنى الأول ما جاء فى سورة يوسف : (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) . وما جاء فى سورة النساء (حافظات للغيب) .

وبالمعنى الثانى ماجاء فى سورة الأنبياء : (الذين يخشون ربهم بالغيب) . وفى سورة يس : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) .

فالغيب الذى يكون الإيمان به من خصائص المؤمن المسلم المتقى : هو فى رأى بعض أصحاب الرسول هو « الله » سبحانه وتعالى . وهو فى رأى فريق آخر من هؤلاء الرجال . الذى قام الإسلام على قواعد من إيمانهم الخالص بالله ورسوله . هو القرآن . وعند فريق ثالث هو كل ما أخبر به الرسول . عليه الصلاة والسلام . مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان .

والمتفق عليه أن للمسلم أن يختار من هذه الآراء ما يطمئن إليه قلبه . وتهدأ عنده نفسه . إذ ليس هناك مذهب رسمى . يحمل عليه المسلمون فيما تختلف فى تحصيله وإدراكه الأفهام ، وتتفرق فى استنباطه واستخراجه العقول . ما دام يخلص إلى رأى له سند من الكتاب أو السنة ، أو منهما معًا . بعد اجتهاد صادق . وكان مؤهلا للاجتهاد بحكم علمه باللغة والقرآن والسنة . وبحكم تجرده من الهوى والغرض .

فليس الغيب مرادفًا للغيبوبة ، عند المسلمين ، وليس هو رخصة ممنوحة بلا مقابل للدجالين والمشعوذين والراغبين فى الاستغراق فى الأحلام والأوهام . ولا هو منحة للكسالى عقليًا ونفسيا . الذين يؤثرون أن يتلقوا

من الآباء والأجداد . أو من القادة والرؤساء . أو من الأساتذة والمربين ، إيماناً معداً لهم . يتجرعونه كالدواء دفعة واحدة . ثم يريحون . عقولهم من أن تفكر . ونفوسهم من أن تتدبر وتتأمل . وعزائمهم من أن تجاهد وتعانى . فإذا صادفتهم صعوبة . أو اعترض سبيلهم مجهول . أو استعصت عليهم مشكلة، اعتبروها جزءاً من الغيب الذى استأثر الله بعلمه . والذى يجب على المؤمن أن يفوض فيه أمره إلى الله . لا يبحث ولا يتساءل . ولا يدرس ولا يناقش . فيصبح فريسة سهلة . للذين يتخذون من عقول الناس ونفوسهم أنعاماً . ليقودوهم من خطامهم إلى حيث يريدون . ليكسبوا من تكتلهم وراءهم جاهاً . ومالا .

فالغيب عند المسلمين هو صنو العلم ومرادفه . وباب المعرفة وسبيلها . وليس حَجْراً على العقول . ولا قيداً على الأفهام . فالعالم . هو أولى الناس بأن يقول لا أعرف . ولا أعلم . لأن العلم . والاجتراء على المعرفة هو داء أقتل من الجهل . وأسوأ من العجز .

وما هنا جاء فى القرآن آيتان . تكمل إحداهما الأخرى : (وقل ربى زدنى علماً) . (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ولقد درج تلامذة العلم المادى ودعاته . على الهزء والسخرية من الدين والمتدينين . لأن الدين . يدعو الآخذين به . والسائرين فى طريقه . إلى الإيمان « بالغيب » . ويحسبون أن عدم إيمانهم بالغيب . وعدم تسليمهم بوجوده . هو لأن العلم الذى أتيح لهم هو علم كامل . وأنهم نجحوا فى تنقيته من شوائب الجهالة والخرافات والأوهام . وأنهم تحصنوا ضد الدجل والأكاذيب والخزعبلات . والحق أنهم بذلك يسجلون على أنفسهم الجهل مرتين .

المرة الأولى . لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء معرفة ما يقصده الدين . والدين الإسلامى . بصفة خاصة . « بالغيب » . وبأثر هذا الاعتقاد . فى علماء المسلمين . ونصيبه فى إنشاء الحضارة الباهرة التى لانزال ننعم

بها إلى اليوم : باعتبار أن العرب هم الممهدون والرواد السابقون مباشرة على عصر النهضة الحديثة فى أوربا التى أفضت إلى عصر الثورة العلمية ، ثورة البخار فالحديد والصلب ، فالكهرباء فالطاقة الذرية .

أما المرة الثانية ، فهى حينما يحسبون أن العلم نجح ، أو سينجح ، فى أن يحيط بكل قوى العالم ، وقوى الإنسان معاً ، وأنه يستغنى بهذا العلم عن الإحاطة بجوانب الكون غير المرئية ، وبمصير الإنسانية الكلى ، بعد كل ما تجمع للإنسان من أسباب السيطرة على المادة التى حوله .

والحق أننى أحب أن أدع الكلام هنا إلى عالم وطبيب ، وحاصل على جائزة «نوبل» سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية ، ذلك هو ألكسيس كيريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » قال :

« إن العلم الذى حول العالم المادى يمد الإنسان بالقوة على تحويل نفسه ، فقد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة السرية ، وأراه كيف يعدل حركته ، وكيف يصوغ جسمه وروحه فى قوالب ونماذج ولدتها رغباته ، فلأول مرة فى التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم سيدة مصيرها . ولكن هل نصبح قادرين على استخدام هذه المعرفة بأنفسنا لمصلحتنا الحقيقية ؟ يجب أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع التقدم ثانية . .

« ومن حسن الحظ أن حادثاً لم يخطر على بال المهندسين والاقتصاديين والسياسيين قد حدث . ذلك أن صرح المالية الأمريكية قد انهار فجأة ، وفى بادى الأمر لم يصدق الجمهور وقوع الكارثة فعلا . . ولكن الإنسان أصغى إلى شروح الاقتصاديين فى استسلام مؤملا فى عودة الرخاء . إلا أن الرخاء لم يعد ، ولهذا بدأ أكثر رؤساء القطيع ذكاء ، يرتابون ويتساءلون : هل أسباب الأزمة اقتصادية ومالية فقط ؟ ألا يجب أن نتهم أيضاً فساد الساسة ورجال المال وغباءهم ، وجهل الاقتصاديين وأوهامهم ؟ ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه ؟ لماذا يجب

أن ندفع ملايين الملايين من الدولارات كل عام لنطارد المجرمين ؟ لماذا يستمر رجال العصابات فى مهاجمة المصارف بنجاح . وقتل رجال الشرطة . واختطاف الناس وارتهانهم . أو قتل الأطفال بالرغم من المبالغ الضخمة . التى تنفق فى مقاومتهم ؟ لماذا يوجد هذا العدد الكبير من المجانين . وضعاف العقول بين القوم المتحضرين ؟ ألا تتوقف الأزمة العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية الأكثر أهمية من العوامل الاقتصادية ؟ » .

و « كيريل » يتحدث هنا عن الأزمة الاقتصادية التى نشبت فى ١٩٣٠ واستمرت حتى منتصف العقد الرابع فى القرن العشرين . لا عن أزمة النقد المستحكمة التى وقعت سنة ١٩٧٢ ثم عادت إلى الظهور . على نطاق أوسع . وبصورة أكثر تعقداً فى سنة ١٩٧٣ . والتى لم تجد لها حلا إلى الآن . فما أشبه الليلة بالبارحة !

وقال « كيريل » : « يجب أن نحطم الحواجز التى أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا . فإن الغلطة المسئولة عما نعانيه إنما جاءت من فكرة لطيفة « بجاليليو » فقد فصل « جاليليو » كما هو معروف جيداً ، الصفات الأولية للأشياء . وهى الأبعاد والوزن التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية وهى الشكل واللون والرائحة التى لا يمكن قياسها . . ففصل الكم عن النوع (الكيف) ؛ ولقد جلب (الكم) المعبر عنه باللغة الحسابية العلم فى حين أهمل الكيف . . لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمراً مشروعاً ، ولكن التغاضى عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك . . فالأشياء غير القابلة للقياس فى الإنسان أكثر أهمية من تلك التى يمكن قياسها . . فوجود التفكير هام جداً مثل التعادل الطبيعى ـ الكيميائى لمصل الدم . . .

ثم قال : « لما اتخذت التركيبات العضوية ؛ والآليات الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيراً من التفكير والسرور والحزن والجمال ؛ دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان .

« وإذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة ؛ فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور ؛ ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقلى هامًا كالنشاط الفسيولوجى . وسيبدو ألا مفرّ من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية . كدراسات الرياضة والطبيعة والكيمياء .. وسوف تبدو وسائل التعليم الحالية سخيفة ، وتضطر المدارس والجامعات إلى تعديل برامجها . وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذى يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية والاضطرابات العصبية : كما سيسألون عما يجعلهم لا يبذلون اهتمامًا بالصحة الروحية .

« ولسوف يدرك الاقتصاديون أن بنى الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون ، ومن ثم يجب أن تقدم إليهم أشياء أخرى غير العمل والطعام والفراغ وأن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية .

وختم كلامه بقوله : « ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب المادية سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فإن المجتمع العصرى ، سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم فى آرائنا » .

وخلاصة كلام « كيريل » الطبيب الباحث العلمى ، أن مصائب الإنسانية التى تتوالى على رأسها ، والتى تمزق شعوبها ، وتلقى بها فى أتون الحروب العالمية حينًا ، وسعير من الحروب الداخلية حينًا آخر ، وفى أزمات المال والاقتصاد مرة وأزمات السياسة والأحزاب مرة أخرى ، مردها أن الحضارة الحالية تقوم على دراسة الجانب المحسوس من الكون وإهمال ما لا يحس ، ولا يقاس ، ولا يوزن . أى أن المعرفة الإنسانية بها خلل أدى إلى خلل الحياة الإنسانية ، وظهر هذا الخلل فيما تظهره الإحصائيات العلمية وإحصاءات أجهزة الأمن من أن الأمراض العقلية والعصبية والنفسية فى تزايد مستمر ، فى أرقى المجتمعات الأوربية والأمريكية .

وكلما زاد الرخاء المادى . وبدا العلم متفوقاً ومحققاً المعجزات فى دولة زاد فيها عدد الجرائم . وعدد المعتوهين والشواذ والمنحرفين . والمصابين بأمراض النفس والعقل ؛ مثل ذلك ما أورده « إريك جون دنج وول » الكاتب الأمريكى فى كتابه : « المرأة الأمريكية » من أن فى الولايات المتحدة نحو عشرين مليوناً ممن يعانون من الأمراض النفسية والعصبية ؛ أى نحو عشر سكان الولايات المتحدة . وفى إحصائية حديثة نشرتها وزارة الشئون الاجتماعية عن نسبة الأمراض العصبية والنفسية فى السويد ثبت أن ٢٥ فى المائة من السويديين مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن ٣٠ فى المائة من مجموع النفقات الطبية فى السويد تنفق فى علاج الأمراض العصبية والنفسية ، وأن نسبة حالات الانتحار بين الشابات تزداد . وعقب المراقبون على هذه الإحصائية بقولهم إنها تدعو إلى الذهول ، لأن السويد تعتبر من أغنى أربع دول فى العالم .

ومن قبل أعلن رمزى كلارك النائب العام فى الولايات المتحدة إحصائية عن الجرائم فى الولايات المتحدة ، علقنا عليها من قبل ،وهى فى رأينا تدعو إلى ذهول أكبر ، إذ يظهر منها أنه لاتنقضى إلا بضع ثوان فى الولايات المتحدة لتقع جريمة قتل أو خطف أو اغتصاب إناث ، أو سطو مسلح ، أو حريق عمدى ، دع عنك جرائم التزييف وتهريب المخدرات والنصب والاحتيال وابتزاز المال بالتهديد أو العنف .

أليس كل ذلك قاطعاً فى أن مجتمع العلم المادى مجتمع فاسد ، صار ينحدر إلى هاوية الجنون والانتحار ، والجريمة ؟!

فالعلم لا يرفع عينه عن جانب واحد من حياة الإنسان ، ويتعالى عن جوانبها الأخرى ، ويتجاهلها ، ويرمى بالنقص والعته من يلتفت إليها ، أو يقف أمامها . ولكن الدين لا يفعل فعله ؛ خذ مثلا موقف الدين من الروح التى هى إحدى عناصر الغيب . إن المتدين لا يزعم أنه قادر على أن يجوس خلال مجاهلها ، ولا أن يعرف شيئاً من عناصرها ،أو

يزعم أن لها عناصر . ولكنه لاينكر وجودها ؛ لأن علماء الفسيولوجيا والبيولوجيا لا يقولون إن الإنسان هو مجموع ظواهره الحيوية فحسب ؛ ويقررون أن إلى جانب الحياة شيئاً آخر يجعل من الإنسان إنساناً ؛ يضحي بحياته . من أجل مثل أعلى ؛ كما يضحيها من أجل أولاده وعائلته . وأحياناً من أجل لقمة العيش. فإلى جانب أجهزة الإنسان الهضمية والتنفسية والتناسلية والعصبية يوجد نشاط لا تفسير له إلا أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، وإنما هو جسد وروح . ولكن ماذا تكون الروح ؟ لا أحد يعرف ، ولا أحد يقوى على الإنكار إلا على سبيل المكابرة . الدين يقول إن الروح من أمر ربى ، فهو يؤكد وجودها . أما العلم فيسقطها من حسابه ، ويتجاهل وجودها ؛ وبوده أن يثبت أنها وهم . ومن هنا يحدث هذا الخلل المروع فى هذا البناء الرائع ، بناء الحضارة الحديثة القائمة على الرياضيات و (الميكانيكيات) والمؤدى إلى إطلاق الطاقة الهائلة المنبعثة من تفتيت المادة والكشف الهائل لعالم الإلكترونات والنيترونات .

فالإنسان بعد كل هذا النجاح الذى حققه فى تسخير المادة ، وإطلاق الطاقة ، لا يزال كالعهد به فى عهد الغابة ، لا ينفك عن القتل والتدمير : يقتل أقرب الناس إليه ، وأحبهم لديه : أهل وطنه ، وأهل دينه ، وليس ثمة شهادة بالإخفاق ، أكبر من هذه الشهادة ، ولا أوضح منها . إنها شهادة دامغة ، لا ترد .

وإذا كان أمثال « كيريل » بعد أن شبعوا من البحث العلمى ، وحققوا بفضله ما حققوا من المكانة ، ينادون بأن الإنسان لابد أن يعيد صياغة نفسه ، وأن الخطأ الذى بدأ به الإنسان ، هو إعلاؤه من شأن الكم عن النوع أو الكيف ، والاحتفال بالوزن والبعد ، دون الاحتفال بالشكل والرائحة ، أى بما يقاس ويوزن ويكال ، دون الاحتفال بما يحس ويتذوق .

يجب أن يفهم علماء علم الطبيعة والكيمياء . وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وأن يسلموا بأن الحياة الإنسانية لاتفسير لها إلا بأن هنالك غيباً ، وأن الإقرار بهذا الغيب هو واجب علمى . لا مجرد مهادنة للدين . ولا خضوع لموروثهم الوجدانى . الذى آل إليهم عن الآباء والأجداد . وعليهم أن يدركوا أن الدين فى معناه السامى . حينما يؤكد الغيب . إنما يستكمل دراسة هذا الكون دراسة علمية ، لا أن يفتح باباً للأوهام ، ولا للدجل الدجاجلة . وشعوذة المشعوذين .

وإن الدين فى ذاته لا يزال أكبر ما قام به الإنسان من نشاط علمى ، وإنه لايزال رائد العلم . وهاديه وحاميه . وإذا كان دين الإنسان البدائى خليطاً من الحقائق والأوهام . فذلك لأن العلم فى أعلى مراتبه هو خليط من الحقائق والأغلاط . وأن العلم نفسه يكشف كل يوم أن ما اعتبره الحقيقة الكاملة ، فى يوم من الأيام ، كان بعض الحقيقة : نصفها أو ربعها أو أقل من ذلك ، بل إنه يعثر كل يوم على الدليل على خطئه الكامل . فى أمور بعضها ثانوى جزئى ، وبعضها أساسى وجوهرى .

وإذا كان الإسلام قد قرر فى كتابه الكريم : (إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، فقد كان هذا المبدأ هو حجر الزاوية فى إطلاق عقل الإنسان من ربقة أكبر الأوهام ، وأكثرها فتكاً به ، وإهداراً لقوته . فالشرك لم يكن إنكاراً لوحدانية الله ، ولا عجزاً عن الاهتداء إلى القوة الخالقة للأكوان والمسيرة لها ، والمدبرة لها ، وإنما كان عجزاً عن إعمال الفكر ، وقعوداً عن استنباط الحقيقة ، وخضوعاً لأعداء العقل الإنسانى وكرامة بنى الإنسان ، المستغلين سلطة الوهم عليه ، المثيرين فى نفسه الخوف من كل ما يحيط به من ظواهر الطبيعة وقواها . ولم يكد الإسلام يفرغ من تحرير عقل الإنسان من هذا القيد الرهيب ، حتى أخذ يستحثه بكل وسيلة ، ويدفعه بكل أسلوب ، لأن يتفكر ويتدبر ، ويتعقل ، وينظر فى نفسه ، وفى

الآفاق . وفى النجوم . وفى الكواكب . وفى دلالات توالى الليل والنهار فى انتظام . وإقبال الفصول وإدبارها فى استقرار . وعجائب الخلق ، واتساع الكون . وجمال الحياة . ولذائذها . وأسباب انبعاث الشرور فيها . وطرائق التضييق على معكرى صفوها . ومقوضى نظامها . وبالجملة فتح الإسلام . أمام العقل الإنسانى . أبواب العلم بمختلف دروبه وفروعه . وثبت أقدامه على طريق المعرفة وأكد له بأنها السبيل إلى العزة . وإلى المنعة . ثم إلى الجنة .

وإذا كانت محاربة الشرك ركن الزاوية فى بناء العلم . فقد ضمن الإسلام للعقل الإنسانى الحماية والحصانة . حينما أكد بشرية الرسل ، الذين هم حملة العلم إلى الناس . وأكد إلى جانب ذلك أنهم لا يعلمون الغيب . وأنهم فى هذا كسائر بنى آدم . ففى سورة الأنعام : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) . وفى السورة نفسها (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) . وفى الأعراف : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) . وفى يونس (إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) . وإذا كان الرسل لا يعلمون الغيب ، وإذا كان علم الغيب عند الله وحده : فقد أقفل باب الاتجار بهذا الغيب ، فى وجه كل من ينسب نفسه إلى الأنبياء من أتباع وخلفاء وأوصياء ، ومفسرى علمهم . وشارحى دينهم . ولو بقى هذا الباب مفتوحاً ، لو لجه آلاف من المضللين . ليطلعوا على الناس بدعاوى لا أول لها ولا آخر .

وامتلأ القرآن بعد ذلك بمئات من قواعد العلم القائم على التجربة والتمحيص ، والمقابلة والاستقراء ، من ذلك ما جاء فى سورة النجم : (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً) ، وما جاء فى سورة الفرقان ، بياناً لصفات المؤمنين من أنهم من (الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً) ، أى أنهم يتدبرون الآيات ولايصدقون بها إلا بعد تفكر وتأمل . وفى سورة

الحجرات : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

ويرفع القرآن قدر الدليل والحجة ويسميها « سلطانًا » . ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام المشركين عن الدليل دائمًا . ويطالبهم به ويقول القرآن : (أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) . وتمتلىء آيات القرآن بلفظ (البينة) ؛ و (البينات) وهى الأدلة والبراهين . ويؤكد أن الرسل حين أرسلوا جاءوا بالبينات ، لا بمحض دعوة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) [١] ؛ (جاءتهم رسلهم بالبينات . فردوا أيديهم فى أفواههم) [٢] .

ولا عجب بعد ذلك أن يقرر القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » لأن معرفة الله . هى أصل المعرفة . والمعرفة لا تتأتى إلا لمن يسعى إليها . فإن دانت له كان من العلماء .

فإذا سولت لأحد نفسه – بعد ذلك – أن يعتبر الغيب عند المسلمين استسلامًا للوهم . أو ركونًا للجهل . أو أخذاً عن السلف دون فهم ، أو كرهًا للعلم . أو زهداً فى البحث . أو عجزاً عن النظر ، أو تضييقًا فى حرية الفرد ، أو إرهابا لصاحب رأى . فإنه لا يعرف الإسلام ولم يقرأ القرآن . ولم يستفت التاريخ ليفتيه كم للإسلام والمسلمين من أياد على العلم ، او لاها لما حقق العلم ما حقق ، وإذا كان العلم قد ضل عن غايته ، والتوى عن قبلته ، فلأن المسلمين تقاعسوا اليوم عن أداء رسالتهم ، فأصبح علم الناس . علمًا بلا روح ، أو غلبته المادة ، واستأثرت به ، فأصبح شأنه شأن كل سجين ، لا يرى من الدنيا ، إلا ما تسمح به طاقة السجن ، مع إحساسه بمرارة القيد ، وقسوة الأسر ، ومن يدرى فقد يستأنفون جهادهم ، ليعيدوا للعلم حريته ، وبالتالى للإنسان كرامته .

---

(١) سورة يونس . (٢) سورة إبراهيم .